بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي

المؤتمر العام الخامس عشر لأكاديمية آل البيت الملكية

١٨ـ٢٠ شوال ١٤٣١هـ الموافق ٢٧ـ٢٩ أيلول/سبتمبر ٢٠١٠م

البيئة في الإسلام

في الدين والبيئة

الأستاذ محمد السماك

عمّان- المملكة الأردنيّة الهاشميّة

في الـدّيـن والـبـيـئـة

استخلف الله الإنسان في الأرض لعمارة الكون وبنائه لما فيه مصلحة الإنسانيّة كلّها جيلاً بعد جيل وحتى قيام الساعة، كما جاء في قوله تعالى: [هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا] [هود: 61]، فالطّبيعة هي من صنع الله، والمحافظة عليها واستثمار خيراتها وعدم إفسادها بموجب نظريّة الاستخلاف هي مظهر من مظاهر احترام الإرادة الإلهيّة والالتزام بها والعمل بموجبها، فقال تعالى: [وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ] [هود: 85]، فمن معالم الفساد في الأرض تغيير موازين الحياة بما يتسبّب في انقراض أنواع عديدة من مخلوفات الله من حيوان ونبات أو ما يتسبب كذلك في انتشار أمراض تفتك بالإنسان وتدمّر بيئته الطّبيعية وتحرمه من موارد أفاء الله بها عليه.

كان النّبيّ ρ أوّل من أنشأ محميّات بيئيّة. وبموجب ذلك حرّم قطع شجر المحميّة أو قتل حيوانها. فقد حمى رسول الله ρ كل ناحية من المدينة بريداً بريداً: «لا يُخْبَط (يُنزع) شجره ولا يُعْضَد (يُقطع) إلّا ما يُساق به الجمل»[1]. وكان ρ «ينهى أن يُقطع من شجر المدينة شيء»[2]. ونرى اليوم كيف أنّ العالم كلّه يصرخ مستنجداً من جرّاء إزالة الغابات في منطقة الأمازون في أمريكا الجنوبيّة ممّا يحرم الإنسان من نسبة عالية من حاجته إلى الأوكسجين. ومما يؤدي إلى تكاثف ثاني أكسيد الكربون، الأمر الّذي يرفع من درجة حرارة الأرض. وبالتالي ينعكس ذوباناً للجليد في القطبين الشّمالي والجنوبي، وارتفاعاً في مستوى البحار التي تغمر اليابسة التي بدأت تضيق بأهلها من البشر.

إنّ السّابقة النّبويّة بإنشاء محميّة طبيعيّة بشجرها وحيوانها تشكّل قدوة حسنة ومثالاً يحتذى. ويمكن أن يتحقّق ذلك بأحد أمرين أو بكليهما. الأمر الأوّل هو حثّ

---

(1) رواه أبو داود عن عدي بن زيد.

(2) رواه أبو داود عن سعد بن أبي وقاص.

الدّولة والمجتمع الأهلي على العمل معاً لإقامة محميّات حول المدن والبلدات ؛ أمّا الأمر الثّاني فهو تحويل أراضٍ وقفيّة إلى محميّات طبيعيّة بعد تشجيرها.

ولا تقتصر السّابقة النّبويّة الكريمة على مجرّد حماية الشّجر، ولكنها تجاوزت ذلك إلى منع صيد الحيوان في أوقات معيّنة من السّنة. فقد قال عليه الصّلاة والسّلام عن المدينة «لا ينفَّر صيدها... ولا يصلح أن يُقطع منها شجرة إلّا أن يعلف رجل بعيره»[(1)]. وقال: «إني أحرِّم ما بين لابَتَيْ المدينة أن يُقطع عضاهُها (شجرها) أو يُقتل صيدها»[(2)]؛ وقال عن واد بالطائف يدعى وادي وَجٍّ «إنّ صيد وَجٍّ وعضاهه (شجره) حرام»[(3)]. وقال الإمام أبو يوسف في كتاب "الخراج": "حدّثنا مالك بن أنس أنّه بلغه عن النّبيّ ρ أنّه حرّم عِضاه (شجر) المدينة وما حولها اثني عشر ميلاً وحرّم الصيد فيها أربعة أميال حولها.. قال أبو يوسف: وقد قال بعض العلماء إنّ تفسير هذا إنما هو لاستبقاء العضاه (الشّجر) "[(4)].

إنّ تحريم قطع الشّجر في موقع معيّن وتحريم صيد الحيوان في أوقات معيّنة يشكّل أساساً لتشريع إسلامي حول المحافظة على البيئة شجراً وحيواناً، أرضاً ومياهاً.

وقد تغلغلت هذه المعاني في ثقافة المسلمين. فالإمام أبو محمد ابن حزم يقول في المُحلّى: «الإحسان إلى الحيوان برّ وتقوى، فمن لم يُعِنْ على إصلاحه فقد أعان على الإثم والعدوان وعصى الله تعالى..» بل يُجبر على سقي النّخل إن كان في ترك سقيه هلاك النّخل وكذلك في الزّرع. برهان ذلك قول الله Y: [وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ] [البقرة: 205].

وقد خرج ابن حزم بالقاعدة التي تقول: إنّ إهمال سقي الزّرع هو فساد في الأرض، والله لا يحبّ الفساد ولا يحبّ المفسدين.

---

(1) رواه أبو داود.

(2) رواه الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقّاص.

(3) رواه الإمام أحمد وأبو داود عن الزبير.

(4) أبو يوسف، كتاب الخراج، ص104.

إنّ منع الحيوان ما لا معاش له إلّا به، من علف أو رعي، وترك سقي شجر الثّمر والزّرع حتى يهلكا، هو بنصّ كلام الله تعالى فساد في الأرض، وإهلاك للحرث والنّسل، وفي ذلك معصية وإثم كبيران.

وفي مقابل ذلك حرص النّبيّ ρ على تشجيع الزّراعة، بهدف زيادة الثّروة النّباتيّة وبما يضيف إلى البيئة الصّالحة، فكان قوله الشهير: «إن قامت الساعة، وبيد أحدكم فسيلة - أي غرسة-، فإن استطاع أن لا يقوم حتّى يغرسها فليفعل»[1]، وقال ρ: «لا يغرس المسلم غرساً ولا يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان ولا دابّة ولا شيء إلّا كانت له صدقة»[2]. وقال: «من أحيا أرضاً ميتةً فهي له»[3]؛ وقال: «من زرع زرعاً أو غرس غرساً فله أجر ما أصابت منه العوافي»[4]؛ وقال: «من أحيا أرضاً ميتة فله أجرٌ فيها، وما أكلت العافية منها فهو له صدقة»[5]، (والعافية والعافي: كل طالب رزق من إنسان أو بهيمة أو طائر، وجمعها العوافي). وهذه صدقة جارية يستمرّ تراكم الأجر عليها باستمرار عطاء الزّرع والغرس، وفي ذلك تشجيع شرعي للزّرع وتحريم للقطع.

إنّ الطّبيعة بما فيها من مخلوقات: من بشر وشجر ونبات وثمار وحيوان، تقدّم للإنسان المؤمن منبراً للتفكّر في عظمة الله الخالق المبدع، [وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ] [الشورى: 29].

إنّها وسيلة من وسائل التّعرّف على الله الخالق البارئ المصوّر، فإذا اعتدى الإنسان عليها وشوّهها، فإنّه يشوّه صورة ما خلقه الله لتكون هذه الصّورة أداة من أدوات التّعرّف عليه سبحانه وتعالى وفق ما تقول به الآية القرآنية: [قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ] [العنكبوت: 20].

---

(1) رواه الإمام أحمد عن أنس بن مالك.

(2) رواه مسلم عن جابر.

(3) رواه الترمذي عن جابر.

(4) رواه يحيى بن آدم في كتاب الخراج عن أبي أسيد.

(5) رواه يحيى بن آدم عن جابر بن عبد الله.

لا تقتصر الثقافة الدّينيّة بالمحافظة على البيئة على الإسلام وحده. ففي الدّيانة اليهوديّة أنّ الله خلق الأرض ومن عليها وأنّه مالك الأرض ومن عليها. واحتراماً لخلق الله حرّم التّشريع الدّيني على اليهود حرث الأرض في السّنة السّابعة، أو استثمارها.

وفي المسيحية، وجّه البابا يوحنّا بولس الثّاني في عام 1989م إلى مؤتمر دولي حول البيئة رسالة قال فيها:"إنّ احترام البيئة مظهر من مظاهر احترام الإنسان للخالق. وإنّ قضيّة البيئة ليست قضيّة سياسيّة أو اقتصاديّة، بل إنّها مسألة أخلاقيّة تتعلّق بالإنسانيّة كلها". ولذلك اعتبر أنّ تدمير الإنسان للطّبيعة هو استقواء على الخالق.

روى لي الشاعر الكبير المرحوم عمر أبو ريشة حادثة وقعت له عندما كان صغيراً مع والده. قال إنّ والده كان جالساً على الأرض مستنداً إلى جذع شجرة في حديقة المنزل، عندما فاجأه عمر من الخلف لافّاً ذراعيه حول رقبته في حركة تودّد ومداعبة. فوجئ والد عمر، وتطلّع إلى ابنه منزعجاً وقال له: لا يا عمر.. لقد قطعت عليّ صلاتي؟ استغرب عمر قول والده. وقال له: كيف تصلّي وأنت جالس على الأرض لا تركع ولا تسجد ؟ فردّ والده: لقد كنت أتأمّل نحلة تمتصّ رحيق زهرة من شجرة المشمش. ففكرت في حِكم الله، كيف تُنبت الأرض الواحدة أشجاراً وثماراً مختلفة. وكيف تمتص النّحل رحيق الزّهر لتصنع منه عسلاً فيه شفاء للنّاس. فكّرت في عظمة تكامل الخلق بين شعاع من نور الشّمس ووحدات من الهواء ومعادن من التّربة، وكيف يؤدّي هذا التّكامل إلى تواصل الحياة وازدهارها.. ثمّ كيف أنّه بتقطيع أوصال هذا التّكامل تنقطع الحياة وتتلاشى.

قال لي عمر أبو ريشة إنّه تعلّم من والده درساً لازمه كلّ حياته، وأنا اعترف أنني تعلّمت من عمر أبو ريشة رحمه الله درساً لم يفارقني منذ ذلك اليوم أنّ الصّلاة عبادة ولكنها ليست كلّ العبادة. فالتفكّر عبادة، والمحافظة على البيئة عبادة أيضاً.

ثمّ أنّ للحياة عناصر لا تكتمل إلّا بها. وبانقطاع التّواصل وبتعطيل التّكامل تتوقّف الحياة. ولذلك فإنّ من واجب الإنسان احترام التّوازن بين الأجناس والمخلوقات الحيّة وتجنّب الغلو في استثمار الموارد الطّبيعيّة بما يؤدّي إلى خلل في المعادلات وإلى

اضطراب في التّوازنات، الأمر الذي يدفع الإنسان ثمنه غالياً جداً على النّحو الذي بدأت إرهاصاته تضرب في كلّ زاوية من زوايا المعمورة.

إنّها سنّة الله، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً.

انطلاقاً من هذه الثّوابت الكونيّة التي ما كانت إلّا لأنّ الله أرادها أن تكون، والتي تُجمع كلّ الأديان على الإيمان بها، أقترح على هذا اللقاء الكريم مشروع التّوصية التّالية:

نظراً للانعكاسات السّلبيّة الخطيرة لاستمرار تدهور وضع البيئة على سلامة الإنسان، ونظراً لتنامي نفوذ ومصالح المستفيدين من إلحاق الأذى والضّرر بالبيئة، على حساب المتضررين من هذا الضّرر؛ فإنّ المشتركين في ندوة الدّين والبيئة، تمسّكاً منهم بالقيم الدّينيّة الإسلاميّة والمسيحيّة التي تحترم الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم كما يقول الإسلام وعلى صورته ومثاله كما تقول المسيحيّة، وعهد الله إليه بعمارة الكون، واستخلفه في الأرض ليكون حافظاً وأميناً على ما فيها من حياة، والتزاماً منهم بالتّعاليم الدّينيّة التي تحثّ على المحافظة على الحياة الإنسانيّة والتي تؤكّد على ضرورة احترام الحياة بكل أشكالها وأنواعها في الإنسان والحيوان والنّبات، يدعون إلى:

أولاً: الحفاظ على سلامة البيئة ووضع حدٍ لما تواجهه من انتهاك وتشويه وسوء استغلال.

ثانياً: توعية المواطنين إلى ضرورة وأهميّة الحفاظ على البيئة باعتبار أنّ ذلك ليس مجرّد واجب اجتماعي فقط، بل هو فوق ذلك واجب أخلاقي وديني أيضاً.

ثالثاً: تنبيه الإدارات الوقفيّة المختلفة إلى ضرورة عدم السّماح باستغلال الأراضي التّابعة لها في استثمارات أو أشغال تضرّ بالبيئة.

رابعاً: العمل على بلورة سياسة بيئيّة سليمة تحترم حقّ الإنسان في هواء ومياه وتربة خالية من التّلوّث الفتّاك.

خامساً: التّمنّي على رجال الدّين من مدرّسين وأئمة ووعّاظ ترويج ثقافة احترام البيئة بكلّ أشكالها انطلاقاً من القيم والتّعاليم الدّينيّة.

إنّ الحفاظ على البيئة مظهر من مظاهر الحفاظ على تواصل الإنسان مع خالقه. ثمّ إنّها ركن أساسي من أركان صياغة عناصر الحياة الكريمة للذّات الإنسانيّة؛ ولذلك فإنّها مهمّة المواطن، كلّ مواطن، التزاماً بواجبات المواطنة. وهي مهمّة المؤمن، كلّ مؤمن، التزاماً بقواعد الإيمان، وهي أساساً مهمة رجال الدّين الملتزمين بالدّعوة إلى الله والى احترام حقّ الإنسان في أن يتمتّع بكرامته الإنسانيّة التي منّ الله بها عليه وأن يعيش في بيئة صحيّة سليمة.